القيم الموسيقية في الشعر العربي

د/ عباده إبراهيم أحمد سعيد

مدرس أدب بالكلية

القيم الموسيقية
فى الشعر العربى

وهى ما يعرف بموسيقا الشعر •

والشعر فن من الفنون الجميلة ، يخاطب العاطفة فى أغلب أحواله ، ويستثير المشاعر والوجدان ، وهو جميل فى تخير ألفاظه ، فى تركيب كلماته ، فى توالى مقاطعه وانسجامها بحيث تتردد ويتكرر بعضها ، فتسمعه الآذان موسيقا ونغما منتظما ، فالشعر صورة جميلة من صور الكلام (١) •

وله تعريفات عدة :

١ – ماثيو أرنولد : يقول : ان الشعر هو نقد الحياة والكشف عن القيم التى يراها الشاعر فى هذه الحياة أو فى جزء منها يهتم به الشاعر •

---

(١) موسيقى الشعر د/ ابراهيم أنيس بتصرف – ٧ ، الطبعة الخامسة ١٩٧٢ •

٢ ــ شيئى : خير كلمات صفت فى نظام .

٣ ــ بعض الأدباء : عاطفة يتذكرها الشاعر وقت الهدوء .

: هو ذلك الكلام الخـــالد .

: طريقة خاصة من طرق استعمال اللغة .

٤ ــ عبارتنا القـــدامى : الكلام الموزون المقفى . لأنهم يرون الانسجام الموسيقى فى توالى مقاطع الكلام ، وخضوعها الى ترتيب خاص (خاضع لتكرار التفاعيل الشعرية) اضافة الى أن تردد القوافى وتكرارها من أهم خواص الشعر ، كما أنهم عرفوا للشعر نواح أخرى تتعلق بالمعنى وما فيه من خيال وصور جديدة تؤثر فى النفس تأثيرا تحديدا ، وتثير العاطفة فطنوا الى هـــذا ، ولكنهم اكتفوا بما يفصل الشعر عن النثر مركزين على ما يسترعى الانتباه .

ويطرب الأسماع ، وهو موسيقا الشعر .

وابن خلدون أشار الى هـــذا أيضـــا ، وجعل الوزن والقوافى والخيال فى الشعر أساسا ، يقول : « الشعر هو الكلام المبنى على الاستعارة والأوصاف المفصل باجزاء متفقة فى الوزن والروى »(٢) ، ويرى أرسطو فى كتاب الشعر / ان الدافع الأساسى فى الشعر يرجع الى علتين : أولاهما غريزة المحاكاة أو التقليـــد . والثانيـــة : غريزة الموسيقا أو الاحساس بالنغم ، ثم بدأ النقاد فى العصور المتأخرة يرون

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٠٤ الطبعة الأزهرية ١٩٣٠م .

ان فى الشعر أمورا أخرى يعبرون عنها بالصور والأغنية حينا ، ويصفونها بالعاطفة والانفعال النفسى حينا آخر »(٣) .

ان الموسيقا تعد مثالا للفنون الرفيعة ، لأنها لغة مشتركة بين الناس جميعا ، والفنون الأخرى تحـــاول أن تبلغ مبلغها فى التأثير ، وحينما استعارها الأدب ليكتمل بها كان على حق ، فأعظم المعانى تقطع الى أن توكب حافل بالأناشيد والغناء ، اكرم بها هبة عبقرية أن يغنى الأديب أفكاره غناء فضلا عن أحاسيسه وانفعالاته ، فيلجأ الأديب بطبيعته اليها فى تأليف اللفظ واختياره لتخرج بها القطعة الأدبية ، وكأنها القطعة الموسيقية الخلابة ، بما فى جملها من حسن الايقاع ، وفى كلماتها من الجرس الناعم الخفيف أو الصلصلة الصاخبة وقوة الحركة المناسبة للموضوع ولعاطفة الشاعر « فالموسيقا النغمية تشيع على الشعر جوا مشبعا بالفنون ، وبالأخص اذا جاءت أوزان القريض التى تنهض بهـــذه الألفاظ ملائمة للون العاطفة التى يحـــاول الشاعر بثها ، فكلما تم التجاوب بينها ازدادت فنونا ، وبدون الموسيقا يستحيل أن يكون الشعر شعرا وان اقتران الألفاظ بالنظم فى شعر كافة الأمم لدليل فى ذاته على هـــذه المنزلة التى تحتلها الموسيقا »(٤) .

فلما جاء المحدثون ونظروا الى معالم الشـــعر فى لغات عدة وضعوا له أركانا ثلاثة يجب أن تتحقق فى الكلام ليسمى شعرا :

(٣) موسيقى الشـــعر ابراهيم أنيس ينصرف ص ١٤ الطبعة الخامسة ١٩٧٢ .

(٤) الشعر والفنون الجميلة ابرهيم العريض ينصرف ص ٢٢ ــ دار المعارف مصر بدون تاريخ .

أولها : ان معانيه تصب فى صور خيالية تثير خيال القارىء او السامع .

ثانيها : أن تتوافر فى ألفاظه صفة التجانس بين اللفظ والمعنى وذلك بأن يكون اللفظ رقيقا فى موضع الرقة قويا عنيفا فى موضع القوة والعنف وأن تتوافر فيه صفة الجرس الموسيقى ، والا يكون اللفظ مبتذلا أو كثير الشيوع لا يرتاح اليه الذوق الشعرى .

ثالثها : الوزن الشعرى وخضوع الكلام فى ترتيب مقاطعه الى نظام خاص ويعنينا هنا البحث عن معنى الجرس الموسيقى فى اللفظ الشعرى ، لأن بعض المحدثين قد وصفوا هذه الصفة بأنها اخص مزايا لغة الشعر ، ولكنها أشدها خفاء ويصعب الدلالة عليها(٥) .

واذا كانت هذه أركان الشعر كما ارتآها المحدثون ، فانهم يرون أن الوزن والقافية خاصية واضحة لا غموض فيها ولا ابهام ، ويرونها تزيد من انتباهنا ، وتضفى على الكلمات حياة فوق حياتها ، وتجعلنا نحس بمعانيه كأنما تمثل أمام أعيننا تمثيلا عمليا وواقعيا ، كما أنها تهب الكلام مظهرا من مظاهر العظمة والجلال ، وتجعله مصقولا مهذبا تصل معانيه الى القلب بمجرد سماعه ، وكل ذلك مما يثير فينا الرغبة فى قراءته وانشاده ، وترديد هذا الانشاد مرارا وتكرارا ، فليس

(٥) التوجيه الأدبى لطه حسين وآخرين ص ١٩٣ ـ الطبعة الرابعة ١٩٤٠ .

الشعر فى الحقيقة الا كلاما موسيقيا ننفعل لموسيقاه ونتأثر به القلوب(٦) .

وقد يمهر الشاعر بأن يتبع وجها من وجوه تجوزها قوانين النظم كأن ينوع فى القافية ، أو يصرع حيث لا يجب التصريع ، وكل هذا مما يثير الانتباه ، أو يبعث على الاعجاب والاهتمام .

فاذا سيطر النغم الشعرى على السامع وجدنا له انفعالا فى صورة الدزن حينا ـ حسبما يريد الشاعر أن يبث من عواطف أو البهجة حينا آخر ، والحماس أحيانا ، وصحب هذا الانفعال النفسى هزات جسمانية معبرة ومنتظمة نلحظها فى المنشد وسامعيه معا(٧) .

وتعلو قيمة الأسلوب الشعرى بمقدار ما فيه من النغم وما يحمل من موسيقا ، والعكس بالعكس ، واذا كانت ألوان الشعر فى حاجة الى الموسيقى فليس ذلك بدرجة واحدة ، فان الشعر الغنائى الوجدانى أشد احتياجا ، لأنه تعبير عن العاطفة الشخصية ، أما الشعر التعليمى لا يظهر فيه هذا المعنى وباقى الألوان الشعرية تختلف من نوع لآخر حسب حاجتها للموسيقا .

وكثير من الشعر العربى الكلاسيكى يتميز بهذا الرنين والتنغيم

(٦) موسيقى الشعر د/ ابراهيم انيس بتصرف ص ١٦ ، الطبعة الخامسة ١٩٧٢م .

(٧) موسيقى الشعر ص ١٤ بتصرف .

الموسيقى وتتنوع هـذه الموسيقا بتنوع موضوعات الشعر الوجدانى، وتتفاوت الأصوات الموسيقية فى قوتها ونغمتها وصفاتها وانخفاضها وارتفاعها ، والموسيقا الشـعرية يجب أن تسـاير موضوع القصيدة وتتلاءم مع التجربة الشعرية • يقول سبنسر : ان خير الموسيقا ماتتمشى مع الأفكار وتتساوق مع المعانى وتتجاوب نغماتها ونبراتها مع حالات النفس •

والشعر الغنائى يموج بالأنغام ، ولا يتخلى عن الوزن والقافية ، ويكون فى كل أجـزائه ايقاعا ، ولا تلزم هـذه القيـود فى الشعر القصصى أو الفلسفى ، اذ يكفى فى عرف النقاد الغربيين أن يتوافر فيـه الايقاع • ويقول لاسل آبركرومبى فى كتابه الشـعر وموسيقاه ومعناه : « يلزم أن تصبغ الموسيقا كل القصيدة فى الشعر الغنـائى ، وبخاصة فى الأغانى ، ولا تلزم فى الشعر التفكيرى ، فانه وان اتصف بالايقاع الموسيقى لا يلزم فيـه ضرورة قيود الوزن والقافية ، ومن ثم جاز فى عرفهم تعدد القافية وازدواجها •

ووحدة القصيدة الموسيقية لازمة لسموها وارتفاع منزلتها باقامة الوزن الموسيقى بين جميع فقرات القصـيدة(٨) • ولعـل السر علوق الشعر بالذاكرة دون النثر هو ما فى الشعر من انسجام المقاطع وتواليها بحيث تخضع لنظام خاص فى هـذا التوالى ، ومتى دربت الأذن على

---

(٨) بين الأدب والنقد د/ خفاجى ونايل ـ بتصرف ٣٢ ـ الطبعة الأولى بدون تاريخ •

هـذا النظام الخاص ألفته وتوقعته فى أثناء سماعها ، والنفس تألف المعاد والمكرر ، ولعل ذلك سر تكرار الاعلانات التجارية ومثل الوزن فى هـذا مثل كل شىء منظم التركيب منسجم الأجزاء يدرك المرء بسهولة سر توالى أجزائه وتكرارها وتركيبها خيرا مما يمكن أن يدرك المضطرب الخالى من النظام والانسجام(٩) •

والموسيقا فى الشعر قـد تقترن بالعاطفة وحدها ، أو تقترن بالعاطفة والخيال معا ، أو تستقل دونهما فى التعبير •

فاما اقترانها بالعاطفة وحدها فلأثرها فى اختيار موسيقا الوزن الشعرى ، ما فيه من تفعيلات توضح الحالة النفسية للشاعر كقول جـريـر(١٠) :

ان الذين غدوا بلبك غادروا ... وشلا بعينك ما يزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلن لى ... ماذا لقيت من الهوى ولقينا ؟

وأما اقترانها بالعاطفة والخيال معا ففى قول قيس بن الملوح :

بربك هل ضممت اليك ليلى ... قبيل الصبح أو قبلت فاها
وهل رفت عليك قرون ليلى ... رفيف الأقحوانة فى نداها

---

(٩) موسيقى الشعر ـ ١٣ بتصرف •
(١٠) شرح ديوان جرير محمد اسماعيل الصاوى ص ٥٧٨ ـ منشورات دار مكتبة الحياة دون تاريخ •

وأما استقلال الموسيقى دون العاطفة والخيال بالأصالة فى التعبير فنى مثل قول جبران خليل جبران(١١) :

هلّ تخذت الغاب مثلى ... منزلا دون القصور
فتتبعت السواقى ... وتسلقت الصخور
هلّ تحممت بعطر ... وتنشفت بنور
وشربت الفجر خمرا ... فى كؤوس من أثير

فالموسيقا وحدها هى التى دفعت جبران أن يقول : (تحممت) والا فالصحيح هو « استحممت » اذا أردنا اقامة الوزن ، واختلاف اللون الموسيقى هو الذى أسبغ على هذه القطعة جو التخايل فى وشاح من حبور(١٢) .

وبعد :

فما المقصود بموسيقا الشعر ؟

هى الايقاع والنغم الناتجان من جرس الألفاظ والعبارات وانسجام توالى المقاطع وتردد بعضها والصور والظلال التى يشعها اللفظ والعبارة كأثر لتكامل العناصر الشعرية المختلفة .

---

(١١) المواكب ص ٢٩ مطبعة المقطم ١٩٢٣م .
(١٢) الشعر والفنون الجميلة د/ ابراهيم العريض ص ٢٩ ، ٣٠ بتصرف دار المعارف بدون تاريخ .

هذا وقد قسم النقاد ودارسو الأدب موسيقا الشعر الى قسمين :

(أ) الموسيقا الخارجية وهى قسمان :

١ ــ الـــوزن ٢ ــ القافيـــة

(ب) الموسيقا الداخلية وهى قسمان :

١ ــ ظاهرة جلية ٢ ــ خفية مستترة

وسنخص كل قسم من هذه الأقسام بحديث خاص :

(أ) الموسيقا الخارجية

اولا ــ الـــوزن :

الشعراء يعتمدون على وسائل فنية للتعبير عن مشاعرهم بعضها يتصل بالمعنى وهو التصوير ، وبعضها يتصل باللفظ والعبارة أو نسق التعبير ، وبعضها يتصل بالشكل العام (الموسيقا الخارجية) للشعر وهو يشمل الوزن والقافية .

والوزن : تقطيع موسيقى جذاب يجعله الشاعر أداة سحرية يلاعب مشاعر ذوى الحس فالبيت الشعرى كما هو معلوم ــ يتكون من عدة وحدات نغمية تتكرر فيه كما يتكرر الايقاع فى الجملة الموسيقية ، والوحدة النغمية هى توالى الأحرف المتحركة والساكنة على نحو منتظم دقيق وتسمى التفعيلة ، فاذا بلغت التفعيلات حدا معينا نشأ ما يسمى بالوزن ، أو بالبحر ، والتى تعتمد على المدوح لا المكتوب .

والوزن والقافية لا يقفان عند الناحية الشكلية ، ولكن لهما اثر فى المعنى ، فالوزن قادر على أن يمنح الألفاظ من التأثير ما لا يكون لها فى النثر ، فان الوزن ايقاع موسيقى له صلة كبيرة بالوجدان .

لذلك آثر الأدباء الشعر اذا أرادوا أن يعبروا عن العاطفة والانفعال أصدق تعبير . والشاعر الموفق يعرف كيف يلائم بين الوزن والموضوع فالأوزان القصيرة الرشيقة تناسبها الموضوعات الخفيفة ، والأبحر الطويلة يوافقها الجد والرصانة والوقار ، لما بين الفنين من تفاوت كبير فى الأذن الموسيقية ، ففيه ما يتناسب مع الهدوء والسكينة ، وفيه ما يناسب الشدة والبطش كشعر الحماسة .

والكلام الموزون ذو النغم الموسيقى يثير فينا انتباها عجيبا وذلك لما فيه من توقع لمقاطع خاصة تنسجم مع ما نسمع لتتكون منها جميعا سلسلة التفاعيل المتصلة الحلقات التى لا تنبو احدى حلقاتها عن مقاييس أخرى .

فاختلاف التفاعيل والبحور طولا وقصرا ، والحركات والسكنات فى مقاطعها أطول منها فى مستفعلن ، فالطويل أطول فى التفاعيل من الهزج مثلا ، ولهذا الاختلاف تأثير كبير فى الأذن الموسيقية .

وهذا الوزن الموسيقى ذو حظ فى أن يكسب الشعر الشهرة والذيوع(١) وارتباط الشعر بالموسيقا أكبر مدده بالتصوير حتى كان

---

(١) أو الخلود حسب تعبير المؤلف على ان المراد به المكث الطويل لأنها لحظة اعتبارها كثير من مؤلفيها .

الرومان يقولون : أن الشعراء ليسوا الا مغنين يترنمون بأشعارهم ويغنون بها لأنفسهم ولمن شاء أن يرددها بعدهم(٢)

ثانيا ـ القـــــوافى(٣) :

مقاطع صوتية حبلى بالنغم ممثلة بأصداء متواصلة اذنين والمتدين ، يفعل جيدها فى العواطف فعلا طويل البقاء متعادى الأثر . فالأذن تتلقى كتلا من المقاطع تطول وتقصر فاذا ترددت فى أواخر هذه الكتل الصوتية مقاطع صوتية بعينها شعرنا بسهولة ترديدها وأحسسنا بغبطة وسرور حين سماعها ، وبعث هذا فينا الرضا والاطمئنان اليها وهنا نلاحظ سر حبنا للكلام المقفى(٤) .

والقافية بمنزلة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها ، ويستمتع بهذا التردد الذى يطرق الآذان فى فترات منتظمة ، وبعد محدد ثابت من التفعيلات . وقد احتلت القافية مكانا هاما فى الشعر العربى حتى كانت القصيدة تنسب الى الروى وهو أبرز حروف القافية .

---

(٢) النقد الأدبى / أحمد أمين ص ٦٤ بتصرف .

(٣) القافية : المقطع الصوتى فى آخر كل بيت شعرى . وقد عرفه الخليل بالحروف التى تبدأ بمتحرك قبل أول ساكنين فى آخر البيت الشعرى وعند الأخفش الكلمة الأخيرة من البيت . وعند أبى على قطرب وأبى العباس الروى ـ والرأى المختار رأى الخليل وعليه العمل .

(٤) موسيقى الشعر ص ١١ .

وفى الاختيار الموفق للروى سر بديع يتناسب مع الموسيقا المناسبة للموضوع والعاطفة المسيطرة عليه ، فالألف الممدودة أقرب الى المناجاة لأنها ، صوت أقرب الى الهمس ، وقافية الراء أقرب الى خرير الماء أو جرجرة الأمواج • ولكل حرف مقام يناسبه على ألا يكون هناك ارتباط يربط بينها وبين موضوع معين •

(ب) الموسيقا الداخليـة

أولا ـ الموسيقا الداخلية الظاهرة :

تلمسها فى كل محاولة التأنق فى التعبير التى يبدعها الشاعر والتى يمكنك كدارس لموسيقا الشعر أن تضع يدك على بعض أسبابها وقد تلمسها اذا انتبهت الى مصادرها فى الشعر فهى تنبع من سيطرة حرف أو حرفين أو ترديد لفظة أو عبارة أو تركيب معين جناسا أو طباقا أو سجعا ، وهـذا نابع من ولوع كثير من الشعراء بترديد حروف أو ألفاظ أو جمل بعينها لأنها تهب الكلام قوة نغمية موسيقية لها رنين خاص ، لاتسامى تعطى النص الشهرة والذيوع •

فمثـــال :

١ ـ سيطرة حرف على الشاعر مطلع سينية البحترى فى وصف ايوان كسرى :

صنت نفسى عما يدنس نفسى
وترفعت عن جدا كل جبس(١)

وتماسكت حين زعزعنى اليأس
التماسا منى لتعسى ونكسى

(١) ديوان البحترى ٢/١١٥٢ تحقيق حسن كامل الصيرفى ذخائر العرب ص ٣٤ دار المعارف الطبعة الثالثة باختلاف يسير •

فان سيطرة حرف « السين » فى البيتين له ما له من سماحة الجرس ، ولطافة الوسوسة وتصاعد الدرجة الفنية بالصياغة الدقيقة القائمة على حسن خارجى يستدرج تفاعلا داخليا ينبسط فى النفس ويندى ح •

والصوت يختلف عن الصوت بالطول والقصر ، وأنه جهورى أو خافت أو غليظ أو رقيق وانه مرتفع أو منخفض •

ومن حروف ضخمة الى حروف لينة رخوة ولكل مقام ما يناسبه من اختيار حروف يعنيها ، وتكرارها فى الأبيات يبرز أثر العاطفة فى التعبير عن الحالة النفسية للشاعر وكذلك اذا لحظت ان كثرة حروف المد أو قلتها فى بعض الأبيات مرتبطة بالمعنى والشعور اللذين تعبر عنهما الأبيات •

ومن أمثلة هذه الموسيقا قول الشاعرة (جليلة رضا) من قصيدة (عادت القناة) :

أممناها أممناها رغم التهديدات المرة(٢)
بدمى بدماك حفرناها هى جزء من مصر الحرة
سندافع عنها لن نألو بالدم حتى آخر قطرة

انظر الى تكرار حرف الميم • وما فيه من القوة والفخامة مما

---

(٢) ديوان اللحن الثائر ـ لجليلة رضا ص ١٦ ـ الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٥٧م •

يناسب مقام الفخر والحماسة التى تبثه الشاعرة فيمن يقرأ أدبها ، بل أن الموسيقا واضحة فيها تماما ، كأنها أغنية حماسية تغنى ، وكذلك تكرار حرف الراء ، وتقطيع البيت الى مقاطع يوحى بالجو الحماسى الذى تريده الشاعرة ، فقد عبرت الموسيقا عن مقصود الشاعرة ، وحسن التوازن بين عبارات الأبيات بمثل هذه الدرجات الموسيقية الصاعدة ، أى أن موسيقى العبارة تمثل موسيقى النفس •

٢ ـ وأما تردد لفظة بعينها حتمت العاطفة على الشاعر اختيارها لتعبر عن الحالة الوجدانية الروحية التى تجعل الشاعر يختار ألفاظا تناسب تلك الحالة •

وتستطيع أن تضع يدك عليها اذا انتبهت أذنك الى أن جرس الكلمات فى القصائد الجيدة يكون هامسا خافتا فى مواطن الرقة والوداعة •

وعاليا صخابا فى مواطن العنف والشدة •

وأحيانا من اختيار كلمات ذات حروف لها جرس يكون مصدرا من مصادر الموسيقا الظاهرة الداخلية ذلك ان للكلمات تأثيرا فى ذواتها ، وبحسب مواقعها من اخوانها وفى الجو الموسيقى الذى تعيش فيه •

مثاله مطلع رائية عمر بن أبى ربيعة :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر
غداة غد أم رائح فمهجر
(١٥ ـ لغة جرجا)

تهيم الى نعم فلا الشمل جامع
ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر
ولا قرب نعم ان دنت لك نافع
ولا نأيها يسلى ، ولا أنت تصبر
وأخرى أتت من دون نعم ، ومثلها
نهى ذا النهى لو ترعوى أو تفكر
اذا زرت نعما لم يزل ذوو قرابة
لها كلما لاقيته ـ يتنمر (٣)

فنرى أن الشاعر هنا يتلذذ بذكر اسم محبوبته بجانب الجو الموسيقى الخلاب على الأبيات يزكى فى المطلع متعة اعادتها لما تزخر به من النغم المريح الأنيس ، خاصة أن للاسم عينه « نعم » كلفظة تغريدة لها استجابة نغمية فى الأذن السليمة .

وكذلك ترديد لفظة فى الهجاء كقول الفرزدق (٤) .

ولو ترمى بلؤم بنى كليب نجوم الليل ما وضحت لسار
ولو لبس النهار بنو كليب لدنس لؤمهم وضح النهار
وما يغدو عزيز بنى كليب ليطلب حاجة الا بجار

ففوق ما يرغب فيه من تقرير الوصمة فى الجماعة وترسيخ اسمهم فى أذهان الناس مرفقا باللعنة والحقارة يساعد هذا التكرير على

(٣) شرح ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ٦٢ ، ٦٣ الطبعة الثانية ط السعادة ١٩٦٠م .
(٤) شرح ديوانه ص ٤٤١ المكتبة التجارية ١٩٣٦م .

اشاعة النغم ورسم الجو النفسى للغرض الذى قصده الشاعر فى الأبيات (٥) .

وكقول هاشم الرفاعى :

أهوى الحياة كريمة لا قيد لا (٦)
ارهاب لا استخفاف بالانسان
فاذا سقطت سقطت أحمل رايتى
يغلى دم الأحرار فى شريانى

فتكرار لفظة « لا » و « سقطت » أحدث جرسا موسيقيا لا ينكر أثره ، زيادة على العاطفة القوية التى تبعث فى النفس شعورا بالعزة يجعل القارىء لا ينحنى لأحد الا لله .

« فلكل مقام مقال » فهناك ألفاظ تناسب الرقة والنعومة وألفاظ تناسب الشدة والقوة فالشدة والقوة تناسب الفخر والحماسة .

كقول بشار (٧) :

اذا الملك الجبار صعر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

(٥) الكامل فى النقد الأدبى بتصرف ص ١٠٣ ، ١٠٤ ـ كمال أبو مصلح منشورات مكتبة دار الفكر بدون تاريخ .
(٦) ديوانه ص ٢٤٥ المطابع الأميرية ١٩٦٠م .
(٧) ديوانه ج ١/٣١٧ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م .

وقوله أيضـا(٨) :

اذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

والرقة والنعومة تناسب الغزل كقول الشاعر :

تخيره الله من آدم فما زال منحدرا يرتقى

وقد اجتمعت الشدة والقوة مع الرقة والنعومة فى بيت واحد . كقول الشاعر :

ألا أيها النوام ويحكم هبوا أسائلكم هل يقتل الرجل الحب ؟

فالشطر الأول قوى شديد ، والشطر الثانى رخو ناعم(٩) .

كما أن للعاطفة المسيطرة على الشاعر أثرها فى اختيار الألفاظ الملائمة لجو النفسى فالحالة الروحية الوجدانية جعلت شوقى يختار ألفاظا تناسب تلك الحالة فى حديثه عن البحر حيث كانت أمواجه عالية صخابة حتى خاف ركاب السفينة الغرق ، وبعد أن هدأت الأمواج هدأت معها نفوس الخائفين فاذا نظرت الى البحر وأنت ممتلىء النفس خشوعا وهيبة لله واعجابا بصنعه تعالى فانك تقول مع شوقى(١٠) :

---

(٨) ديوانه جـ ٤/١٦٣ ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م .

(٩) النقد الأدبى أحمد أمين ص ٦٤ ، ٦٥ بتصرف مكتبة النهضة المصرية بتصرف الطبعة الخامسة ١٩٨٣م .

(١٠) ديوانه جـ ١/١٧ ـ المكتبة التجارية الكبرى ١٩٧٠ م .

رب ان شئت فالفضاء مضيق واذا شئت فالمضيق فضاء

يتولى البحار مهما ادلهمت منك فى كل جانب لألاء

واذا ما علت فذاك قيام واذا ما رغت فذاك دعاء

فاذا راعها جلالك خرت هيبة ، فهى والبساط سواء

فالعاطفة حتمت على الشاعر اختيار ألفاظ خاصة لتعبر عنها ، فمثلا اختيار البداية بهذا النداء المقدس « رب » وكلمة « ان شئت » و « فضاء ـ مضيق ـ مهما ـ منك ـ ادلهمت ـ لألاء ـ قيام ـ دعاء ـ رغت ـ راعها ـ خرت » .

وهكذا كان للعاطفة أثرها فى اختيار ألفاظ خاصة لها موسيقاها التى تعاونت فى اظهار موسيقا خاصة فى الأبيات لعلنا وضعنا يدك على بعضها .

وكذلك سيطرت الحالة النفسية الفزعة على حافظ ابراهيم فأملت عليه أن يختار البداية هذا اللفظ المثير « عاصف » ليعبر عن حالة الشاعر النفسية حينما كان البحر غاضبا يوشك أن يغرق سفينة أنت راكبها فلاشك أن النفس ستملأ خشية منه وفزعا وشماتة بالبحر بعد

أن أذل الله طغيانه كما ستمتلىء امتنانا لله وشكرا على الحالة التى وصلت اليها ، يقول(١١) :

عاصف يرتمى وبحر يغير
أنا بالله منهما مستجير
وكأن الأمواج وهى توالى
محنقات ـ أشجان نفس تثور
أزبدت ثم جرجرت ، ثم ثارت
ثم فارت كما تفور القدور
ثم أوفت مثل الجبال على الفلـ
ـك وللفلك عزمة لا تخور
وعليها نفوسنا خائرات
جازعات ، كادت شعاعا تطير
فى ثنايا الأمواج والزبد المنـ
ـدوف لاحت أكفاننا والقبور
مر يوم وبعض يوم علينا
والمنايا الى النفوس تشير
ثم طافت عناية الله بالفلـ
ـك ، فزالت عمن تقل الشرور
ملكت دفة النجاة يد اللـ
ـه فسبحان من اليه المصير

(١١) ديوانه ج ١/٢٢٧ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ ـ الطبعة الثانية .

أمر البحر فاستكان وأمسى
منه ذاك العباب وهو حصير
أيها البحر لا يغرنك حول
واتساع وأنت خلق كبير
انما أنت ذرة فى اناء
ليس يدرى مداه الا القدير

فلاشك أنك ترى معى أن العاطفة المسيطرة على الشاعر حتمت عليه اختيار ألفاظ موسيقية لها رنين خاص كلفظة عاصف ، يغير ، يرغى ، مستجير ، محنقات ، تثور ، جرجرت ، ثارت ، فارت ، تخور ، خائرات ، جازعات الى آخره .

٣ ـ وأما ترديد جملة هى مصدر من مصادر الرنين والنغم الموسيقى يسعى اليه الأديب شاعرا أو ناثرا ، فيجعل من الجمل المكررة لازمة يقف عندها فى نهاية كل مقطع ليستثير الحماسة والاعجاب ، أو يستغله مبتغيا من ورائه مقصدا ايقاعيا يقوى به رونق الكلام ، ويكسبه طلاوة صوتية رائعة .

فهناك تراكيب قوية ، ضاجة ، صارخة كما فى كثير من شعر المتنبى وخطب الحروب .

وهناك تراكيب ناعمة هادئة يمور بها الأسلوب فى روعة اللحن وفتنة الاغراء كما فى أكثر شعر الغزل فمثال التراكيب القوية الضاجة قول الشاعر :

(أميـة بن أبى الصلت)(١٢) :

بأنا النـازلون بكل ثغـر
وأنا الضـاربون اذا التقينـا

وأنا المـانعون اذا أردنـا
وأنا العاطفون اذا دعينـا

وأنا الحـاملون اذا أناخـت
خطوب فى العشـيرة تبتلينـا

وأنا الرافعـون على معـد
أكفا فى المكارم ما بقينـا

وأنا الشاربون المـاء صـفوا
ويشرب غيـرنا كدرا وطينـا

فتكرار عبارة « وأنا الفاعلون كذا كذا » تركت موسيقى قـوية ضخمة ناسبت مقام الفخر الذى قصده الشاعر .

ونلمس هـذا الأثر الموسيقى لمسا وتضع يدك عليه اذا انتبهت الى بعض المحسنات البديعية الموفقة كحسن التقسيم للعبارات كما فى قول البارودى يفخر ليسرى عن نفسه وليدفع عنها الشعور بالانهـزام وهو فى أسره(١٣) .

(١٢) ديوانه ٦٦/٦٧ طبعة المكتبة الأهلية بيروت لبنان (الطبعة الأولى) ١٩٣٤م .

(١٣) ديوانه ج ٢/٨٦ دار الكتب المصرية ١٩٤٢ .

قئول وأحـلام الرجـال عوازب
صئول وأفـواه المنـايا فواغـر

فلا أنا أدنانى الوجـد باسـم
ولا أنا ان أقصـانى العـدم بآسر

فما الفقر ان لم يدنس العرض فاضح
ولا المـال ان لم يشرف المرء ساتر

ففى كل بيت عبارتان متوازنتان تمام التوازن ، وهو ما يسمى بحسن التقسيم(١٤) ، حتى أضاف اليه الترصيع بقواف داخليـة ، يضـع « صئول » فى مقال « قئول » ويضـع « أقصـانى » مقـابل « أدنانى » ومن أقدم الأمثلة لترصيع العبارات وحسن تقسيمها قول الخنساء(١٥) :

حامى الحقيقة محمود الخليقة مهـ
ـدى الطريقـة نفـاع وضـرار

جواب قاصـية ، جـزار ناصـية
عقاد ألوية للخيـل جـرار

(١٤) هو : تقسيم الكلام قسمة مستوية تحتوى على جميع أنواعه ولا يخرج منها جنس من أجناسه .

(١٥) ديوانها ص ٨٠ مع ديوان حاتم الطائى بلا اشارة لمكان الطبع ١٣٢٦هـ ـ ١٣٤٨هـ والعقد الفريد ج ٣/١٩٧ ـ دار الفكر .

انك فى الترضيع(١٦) أو حسن التقسيم تجد أن العبارة الأولى قد خطت لها فى النفس مجرى وتركت فى الأذن صدى فلما جاءت العبارة الثانية على مثال الأولى سارت فى مجرى تألفه النفس وردد صدى تعرفه الأذن ، فكأنك بهذا قد عزفت جملة موسيقية مرتين عديدة ألفتها النفس من المرة الأولى وتمتعت بها فى المرات التالية وبهذا تطرب النفس والأذن جميعا ، لأن عادة النفس أنها تألف المكرر وتتعشق لمعرفتها به وإلفها له كما قال الشاعر :

لم تزلْ تلك عادة الله عندى
والفتى آلف لما يستعيد

وكما قال آخر :

تعود صالح الأخلاق انى
رأيت المرء يألف ما استعادا

كما تتمثل الموسيقا الظاهرة فى لون آخر هو الجناس(١٧) كقول أبى نواس :

عباس عباس اذا احتدم الوغى والفضلَ فضلَ والربيع ربيع

وكقولِ محمد بن كناسة :

---

(١٦) الترصيع : مقابلة كل لفظة : من فقرة النثر أو صدر البيت بلفظة على وزنها وروِيها .

(١٧) الجناس : تشابه اللفظين فى النطق واختلافهما فى المعنى .

وسميته يحيى ليحيا ولم يكن
الى رد أمر الله فيه سبيل

وكقول آخر :

فدارهم ماديمت فى دارهم وارضهم مادمت فى ارضهم

وكقول آخر :

اذا ملك لم يكن ذا هبة فدعه فدولته ذاهبة

وتتمثل الموسيقا الظاهرة فى السجع(١٨) .

كقول الأعرابى حين ذهب بابنه السيل :

« اللهم ان كنت قد أبليت ، فانك طالما قد عافيت » .

كقول أبى تمام(١٩) :

تجلى به رشدى ، وأثرت به يدى
وفاض به ندى ، وأورى به زندى

كقول الشاعر :

وأفعالنا للراغبين كرامة وأموالنا للطالبين نهاب

---

(١٨) السجع : توافق الفاصلتين فى الحرف الأخير ، وأفضله ما تساوت فقره .

(١٩) شرح ديوان أبى تمام للخطيب التبريزى جـ ٢/٦٦ دار المعارف الطبعة الرابعة ١٩٨٣م .

كقول الشاعر :

فحريق جمرة سيفه للمعتدى
ورحيق خمرة سيبه للمعتفى

كما تتمثل الموسيقا الظاهرة أيضا فى الطباق(٢٠) :

وكقول الشاعر :

تأخرت استبقى الحياة فلم أجد
لنفسى حياة مثل أن أتقدما

وكقول الشاعر :

لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة
لقد سرنى أنى خطرت ببالك

وكقول الشاعر :

خلقوا وما خلقوا لمكرمة
فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا وما رزقوا سماح يد
فكأنهم رزقوا وما رزقوا

(٢٠) الطباق الجمع بين الشىء وضده فى الكلام . وهو نوعان طباق ايجاب وطباق سلب .

وهكذا تجد أن معظم أنواع البديع فيها ألوان واضحة من الموسيقا الظاهرة ولكنها تختلف فى هذا الأثر الواضح فنوع يكون أثره أكثر من نوع آخر وهكذا(٢١) .

أما الموسيقا الداخلية الخفية فهى ثمرة لكل العناصر الفنية المختلفة المجتمعة فى القصيدة متوائمة مع موضوع الشعر ملائمة أفكار الشاعر وتحكمها قيم صوتية باطنية أرحب من الوزن والنظم المجردين — متمثلة فى عواطف من آثارها اهتزاز النفس الشاعرة حالة انفعالها .

ويحدث هذا الاهتزاز والتأثر فى نفس المتلقى دون ادراك سبب معين لذلك ، وفى أفكار وألفاظ وأخيلة وصور على أن يكون هناك اتساق بين العناصر كلها وهو ما يسمى بالموسيقا الداخلية الخفية ، لأن الاتساق أثر للأصالة والصدق فى الأدب ، فلابد من الاتساق بين الأفكار والصور والألفاظ والتعبيرات ، وبين كل فكرة وفكرة ، وصورة وصورة ، وتعبير وتعبير على أن يتحقق هذا الاتساق بين العناصر فى اطار الهدف الواحد الذى يرمى اليه النص .

(٢١) النقد الأدبى — أحمد أمين ٦٥ ، ٦٦ بتصرف .

المقيـاس الموسـيقى

والمقياس السليم الذى تقـاس به الموسـيقا ومدى تحقيقها فى النص مهما يكن نوعه •

١ ـ هل كان للنص أثر باق فى نفس السامع أو القارىء ؟

٢ ـ هل كانت أفكار النص ملائمة كلها الجـو النفسى الذى أنشىء فيـه ؟

٣ ـ هل كانت الأفكار كلها مؤدية الى توكيد الهدف الذى قيل النص من أجـله ؟

٤ ـ هل كان تصوير المعانى يخدم الفكرة ويوضحها ؟

٥ ـ هل كانت الصور موجهة وجهة تسلم فى النهـاية الى تحقيـق الهـدف ؟

٦ ـ هل كانت الألفاظ تجرى فى مجرى نفسى واحد ؟

٧ ـ هل كانت طريقة التعبير من تقديم وتأخير أو اطناب أو ايجـاز لو غير لو انشاه تلائم الجو النفسى ؟

٨ ـ هل كانت الألفاظ الوحية توحى كلها بأجواء تنسجم مع الهدف ؟

٩ ـ هل كان فى النص بعـض العبـارات ذات الجـرس الصوتى الخاص ، وهو فى الوقت نفسـه يؤكد المعنى الجـزئى والمعنى العام للنص ؟

١٠ ـ هل تحققت الوحدة الفنية فى النص بحيث كانت الأفكار متصلة مرتبة مسلمة للهدف ؟

هـذا مسبار فى يدك تقيس به مدى تحقق الموسيقا فى النص ، وعلى قدر الاجابة عن هـذه الأسئلة ودرجة ومدى تحققها ، يكون حظ النص من الموسيقا •

وهـذه الأسئلة انما تتناول مدى التعاون بين الأفـكار والصور والألفاظ والعبارات فى تحديد روح الأديب وفنه ، ولن تجاوز الصواب لأنها ثمرة دراسة واستقصاء واستقراء •

د/ عبادة ابراهيم أحمـد
مدرس أدب بالكليـة